كيف تتحول الصحة النفسية إلى جزء من ثقافتنا التربوية؟

مقدمة

إن ثقافة الإصلاح منهج مترسخ في الثقافة التونسية منذ قرون خلت(فكر خير الدين الإصلاحي مثلا...). والإصلاح الفكري إنتاجا ومؤسسات ليس مجرد "موضة فكرية" بل تفرضه جملة من الاعتبارات منها:
- احتياجات الأمن القومي: وذلك لتجاوز التبعية الثقافية والاقتصادية
- احتياجات التنمية: فتنمية مؤسسات الثقافة والبحث العلمي يساعد على تنمية قيم المشاركة والتخطيط التنموي
- تنمية قيم المواطنة الواعية الفعالة المساهمة في نهضة المجتمعات

صحيح أن موضوع الإصلاح ليس موضوعا حياديا، إذ يتأثر بمجموعة من التجاذبات الاجتماعية والثقافية والسياسية. وحتى وان اختلفنا في الوسائل فلا يجب أن نختلف في الغايات، فالإصلاح يجب أن يتم على أساس عملية تشخيص تتوفر فيها جرأة "الجراح" وشجاعة "المريض". ورفض الإصلاح لا يجب أن يكون بمجرد الاكتفاء بقول "لا" بل يجب أن يكون الرفض مبنيا على التأسيس، خاصة عندما تتحول الحاجة إلى الإصلاح إلى ضرورة حتمية ومطلب اجتماعي وتربوي.

I- مدخل إلى التشخيص

" إن دخولنا للألفية الثالثة يفرض علينا أن ندرك أن العالم الذي نعيش فيه اليوم هو عالم جديد تغيرت فيه وحدة المعرفة وطبيعة المجتمعات الإنسانية والنظام الاجتماعي ونظام التفكير، بل لقد تغيرت فيه فكرة المجتمع والثقافة نفسها، وان الإنسان لا يستطيع الرجوع إلى ما كان عليه الماضي. إن ما هو جديد في هذا العالم ليس جديدا بمعنى أنه لم يكن موجودا في السابق، وإنما هو جديد لأنه تغير نوعيا وأن الشيء الجديد فيه هو الإنسان بالجدة والتبدل في معيار التبدل ومداه، هذا هو المنطق الذي يحكم العالم اليوم"(1)

علينا إذن التعلم من تجارب الآخرين ومن تجاربنا الماضية للتحرر من القيود التي تكبلنا. ولهذا فسوف نستثني من محاولتنا هذه، الكلمات والشعارات "الرنانة" التي تعتبر جزءا من الأدبيات القائمة وليس حلا لها. فالأزمة الثقافية والتربوية لا تكمن في غياب الإجابات الواضحة، بل تكمن في هذا " الفائض" اللغوي الإنشائي الذي ينقصه العمق والعمل والإنجاز.

من هنا تصبح قضية الإصلاح الداخلي للنظام التربوي مطلبا حقيقيا عاجلا تحتمه الأوضاع الداخلية لواقع المدرسة. فإصلاح المنظومة التربوية(وخاصة العلائقية منها)، وتعثر بعض المحاولات التي تسعى إلى تلطيف حدة التوترات هي وراء العجز للتصدي لما يحدث، فما بالك بالبت والفصل فيه وحسمه.

إن الخلل في هذه الحالة هو في جزء منه كامن داخل حدود المدرسة وليس فعلا خارجيا فقط(اجتماعي- سياسي- ثقافي واقتصادي)، بل لعل العوامل الخارجية تجد في "الثقوب" التي تعتري النظام التربوي منافذ وجسورا للتأثير فيه.

إن ما يجعلنا نحس بالمرارة في بعض الأحيان، هو أنه رغم "ترسانة" القوانين والأوامر المنظمة للحياة المدرسية(التي تمثل حاضنة ومرجعا للتجديد التربوي)، ورغم استفحال الأزمة العلائقية داخل المدرسة وانكشاف معالمها بوضوح، لم ننجح بعد في اعتماد التشخيص الصائب والقراءة الدقيقة للمرحلة بحيث نواجه المستجدات بعقلية وآليات جديدة وحديثة.

إن تحديد مدخل جديد لتجاوز هذا المأزق والحيلولة دون تحول الأزمة التربوية إلى أزمة اجتماعية يمر حتما عبر التشبع بروح الإصلاح ومرجعيته والعمل على أن لا يطغى الخطاب الاجتماعي والإعلامي على الخطاب التربوي داخل المدرسة.

ومن بين الشروط لتحقيق ذلك هو أن تتحول الصحة النفسية إلى جزء أساسي ومبدئي في ثقافتنا التربوية لأننا نريد أن نعلم، ولكن كذلك نريد أن نربي على مجموعة من القيم. يكون ذلك ممكنا بجعل غاية المدرسة الأساسية هي تربية طفل متوازن- مفتح- مطلع ومندمج في المدرسة وخارجها.

II-التطور الاجتماعي داخل المدرسة

إن المدرسة مؤسسة من مؤسسات التنشئة الاجتماعية ، وكلما أدت دورها التربوي على أحسن وجه ازدادت كفاءتها الداخلية والخارجية ليس في ميدان التعليم فحسب، بل كذلك في مجال التربية القويمة. فكل ما يكتسبه الفرد من فضائل وخصال، وكل ما يترسخ لديه من خصائص(حدة الوعي- التفكير البناء- قوة الإرادة- الخصائص الأخلاقية الرفيعة- تماسك الشخصية...)، إنما يأتي نتيجة لتفاعل الفرد مع غيره في وسط اجتماعي رصين ومنظم تمثله المدرسة، و ذلك من أجل جعلها مكانا للتنشئة الاجتماعية السليمة وليس مكانا للإقصاء والعنف التربوي والاجتماعي. ولذلك علينا أن نجنب أطفالنا قدر (المستطاع) التعرض لخبرات قاسية يمكن أن تولد عندهم مجموعة من السلوكيـــــــات المرضية الظاهرة والخفية.

إن غاية المدرسة وهدفها الأساسي هو إحداث ما يسمى بـ" الاندماج" الذي يتطلب بدوره تغييرا في سلوك وتفكير واتجاهات الفرد، لكن بدرجة كبيرة من المرونة والحرفية، وبهذا تصبح التجربة الاجتماعية في المدرسة **" محصلة لما يقوم به الفرد من علاقات تفاعلية مع البيئة التي يعيش فيها، الهدف منه إحداث توازن نفسي بين الفرد وبيئته من أجل نمو امكاناته وتوظيفها وتحقيقها في حيز الواقع". (2)**

وبذلك يرتبط الاندماج الاجتماعي داخل الفضاء المدرسي، بما يوفره هذا الفضاء من وضعيات ومسارات تنمي الاتجاهات النفسية السليمة لدى الطفل بحيث تصبح نشاطاته وأفعاله وتصرفاته تقاس بمدى تطويره لقدرته على التوافق الاجتماعي مع مكونات المدرسة وإقامة علاقات اجتماعية سليمة مع أفرادها ومكوناتها.

إن مدى نجاح التجربة الاجتماعية المدرسية مرتبط بما توفره هذه البيئة من إحساس بالأمن والاستقرار لأن "القلق يضعف من الوظائف العقلية للطفل وكذلك من قدرته على الانتباه، وأن جهوده تتحول نحو مواجهة مشكلاته بحيث يجد نفسه قاصرا على التعامل مع واجباته الأخرى بنجاح".(3) فعادة ما يعاني الأطفال الأكثر قلقا من قلة القدرة على التكيف الاجتماعي وضعف الانتظام في المردود المدرسي. لكن ماهو مصدر القلق وصعوبة الاندماج في المدرسة؟

يأتي الأطفال إلى المدرسة وهم بحاجة إلى الأمن والمحبة والإحساس بالانتماء والرغبة في الاعتماد على النفس والرغبة في عيش حياة اجتماعية، وقد لا تكون المدرسة قادرة دائما على تلبية هذه الاحتياجات مجتمعة لجميع المنتسبين إليها. وتجدر الإشارة هنا "أن الأطفال لا يصبحون مرضى بسبب المدرسة ولكنهم يعانون منها دون شك."(4)فالنظام المدرسي الذي يهمل جانب التنشئة الاجتماعية ويقتصر على التدريس فقط ،والذي يقوم أساسا على العقاب والقسوة والتوبيخ والأمر والنهي، يهدد إحساس الطفل بالأمن ويجعله يخاف من المدرسة ويفقد الثقة بالراشدين وبذلك تتحول الخبرات المدرسية لدى الطفل إلى خبرات مؤلمة ومزعجة ومخيفة.

III-اضطرابات التطور النفسي والمعرفي داخل المدرسة

1- اضطرابات التطور النفسي:

إن 'تقدير الذات" أمر مركزي في التطور النفسي والمعرفي للطفل، وهناك أكثر من دراسة علمية أكدت على العلاقة القوية بين تقدير الذات لدى لطفل والتحصيل المعرفي. فتقدير الفرد لذاته مرتبط بمعاملة الكهول في الأسرة والمدرسة ومرتبط بعلاقته بمحيطه بشكل كلي... فالمدرسة والمؤسسات التربوية عموما لها دور كبير فى تكوين مفهوم الذات لدى الطفل وبالتالي تقديره لذاته. فمفهوم الذات"مفهوم نفسي يعبر عن لإدراك الشخص لخصائصه الجسمية والعقلية والأخلاقية والاجتماعية والانفعالية، وهو جزء لا يتجزأ من خبرة الشخص."(5)

إن تقدير الذات المرتفع، يعني أن الفرد يحترم نفسه ويعتبر أنه ذو جدارة ولا يعتبر نفسه بالضرورة أفضل من أقرانه أو المحيطين به، لكنه بالمقابل لا يعتبر نفسه أقل منهم شأنا. إنه لا يشعر أنه كامل ومثالي بل يعرف نواحي قصوره ويتوقع التحسن والتقدم من خلال الاعتماد على خبراته ومعارفه السابقة وتنميتها باطراد. إذن فتقدير الذات يعني فيما يعنيه تشخيص الفرد لخصائصه الايجابية والسلبية. أما تقدير الذات المنخفض والمضطرب والسلبي فيقترن بضعف الثقة بالنفس والاضطراب العاطفي أو السلوكي والانسحاب من المشاركة الاجتماعية وعدم التفطن إلى نقاط القوة في شخصية الفرد.

يعود ذلك إلى أسباب عديدة منها أسباب تتعلق بالمدرسة. فدور المدرسة ليس التعليم فقط ، بل التربية في جميع مستوياتها بما في ذلك التربية على الاتزان الشخصي والنفسي والسلوكي باعتبارها تؤثر في تكوين الفرد وفي نموه النفسي ويرتبط ذلك بـ:
- توقعات المدرسين من تلاميذهم في عملية التحصيل الدراسي(يمكن أن تكون مرتفعة جدا أو منخفظة جدا) وكذلك الطريقة التي يسلكها المربون عموما مع الأطفال التي لا تكون دائما طريقة مثالية وعلمية.
- آراء الأقران والزملاء في الصف أو في الساحة في شخصية الطفل: فإذا تلقى الفرد تقديرا جيدا من زملائه، ساهم ذلك في توازنه النفسي، وإذا كان تقدير زملائه له سلبيا تصبح ردود فعله تجاه نفسه والآخرين سلبية.
- الطموح: إذا كان الطموح لدى الطفل متطابقا مع قدراته ونتائجه، فان النمو النفسي يتم بشكل عادي وربما متميز. أما إذا تعارضت الطموحات مع الإنجاز (وخاصة عندما يضع الطفل أهدافا تفوق قدراته)، فان الفشل في تحقيق هذه الطموحات يؤدي إلى اهتزاز الثقة بالنفس وتقدير منخفض للذات، وبذلك تهتز الثقة في الآخرين كما تهتز الثقة في العلاقات الاجتماعية داخل المدرسة وخارجها وبذلك يدخل الطفل في ثنائية "السوي" "المنحرف".

2-اضطرابات التطور المعرفي

" إن كلمة سوي في الانقليزية تعني قاعدة ومعيارا، أو معدلا... ومن الغرابة حقا أن كلمة "السوي" تستعمل في وصف الذكاء ولكن كلمة غير "سوي" أو شاذ لا يكثر استعمالها في صدد الذكاء... ومصطلح "منحرف" يحمل في ثناياه عادة شيئا مخلا كأنه يتضمن شيئا غير مألوف."(6)

تجدر الإشارة هنا أننا حين نتكلم عن اضطرابات التطور المعرفي لدى الأطفال والشباب فإننا نقصد بها مجموعة من الأعراض والظواهر والمشاكل التي تعترض الفرد في علاقة بالمواد الدراسية. ونذكر على سبيل الذكر لا الحصر:(7)
- الاضطرابات الإدراكية
- اضطرابات الذاكرة
- ضعف الذاكرة، النسيان، فرط التذكر...
- تحريفات الذاكرة
- اضطرابات التفكير....

وهذه الأعراض والمشاكل ليست قدرا مطلقا بل يمكن التعامل معها ومعالجتها، ولكن شرط توفر المرافق الكفء داخل المدرسة وشرط أن تتحول الصحة النفسية إلى عمل مواز للإدارة المدرسية ولعملية التعلم وليس مجرد جزء مهمش منها.

خاتمة

لنا في موضوع الإصلاح التربوي ملاحظتين أساسيتين:
- الملاحظة الأولى للذين يشككون في جدوى هذا **الإصلاح** بذريعة أنه وافد من الخارج، نسألهم: ألم تكن نظريات الفلسفة والسياسة والاقتصاد منذ عصر "النهضة" إلى اليوم وافدة من الخارج؟ ما الذي يمكن أن يقدمه الداخل خصوصا في هذا الوضع المعقد **المتسارع** الأحداث والإيقاع؟ هل أن الداخل يفيد في التشخيص أم العلاج؟ ما يفيدنا **الجدل حول الـــ**داخل والخارج إذا كنا فعلا نبحث عن الحل وليس عن إيجاد مشكل إضافي؟
- الملاحظة الثانية للذين يتصورون أن **الإصلاح** مجرد قانون يصدر: نقول لهم: **ليـــس الإصلاح التربوي مجرد إصدار للقوانين التي** تنظم الحياة المدرسية في القسم وخارجه، بل هو رؤية شاملة لما يجب أن تكون عليه التربية عموما، من التعليم مرورا بالتعلم وصولا إلى التنشئة الاجتماعية والنفسية السليمة. وهذا ما يفترض الأخذ بعين الاعتبار الجوانب التعليمية والإدارية والتربوية والبيداغوجية. وذلك ممكن حين تصبح الصحة النفسية جزءا لا يتجزأ من ثقافتنا التربوية داخل القسم وخارجه.

طارق بن الحاج محمد
باحث في علم الاجتماع التربوي

المصادر والمراجع

1- إدارة برامج التربية: "المعالم الأساسية لمدرسة المستقبل- تصورات عربية-" , المجلة العربية للتربية. مجلة محكمة نصف سنوية(يونية،سبتمبر) المجلد العشرون العدد الثاني(شوال 1421هـ/ ديسمبر 2000). ص 79
2- د. أحمد محمد الزعبي: " الأمراض النفسية والمشكلات السلوكية والدراسية لدى الأطفال". دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى 1415 هـ ، 1994م. ص23
3- نفس المصدر ص 49
4- نفس المصدر ص 59
5- د. محمد الشيخ حمود: "تقدير الذات في السلوك الدراسي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية وعلاقته ببعض المتغيرات". المجلة العربية للتربية(ديسنمبر 2000). ص 128
6- "موسوعة علم النفس" (ترجمة الدكتور عبد العلي الجسماني). الدار العربية للعلوم- الطبعة الأولى 1414هـ ، 1994م. ص 68
7- لمزيد الاطلاع على هذا الموضوع الرجاء الرجوع إلى:
د. عبد العلي الجسماني: "الأمراض النفسية تاريخها- أنواعها- أعراضها- علاجها". الدار العربية للعلوم الطبعة الأولى 1418هـ/1998م. وخاصة من الصفحة 51 على الصفحة59.